مناهج المحدثين

المحاضرة الثالثة عشرة

عنوان هذه المحاضرة

التدوين في القرن الرابع

والتعريف بكتاب "سنن الدارقطني" ومنهجه فيه

(أولًا)

السنة في القرن الرابع الهجري

- تقدم أن القرن الثالث الهجري يعتبر أزهي عصور السنة على الإطلاق وأحفلها بخدمة الحديث ،

ففيه ظهر أفذاذ الرجال من حفاظ الحديث وأئمة الرواية ،

وفيه ظهرت الكتب الستة ،

وفيه اعتنى الأئمة بالكلام على الجوامع والمسانيد ، وتواريخ الرجال ، ومنزلتهم في الجرح والتعديل.

ولم يكن العلماء في هذا القرن يدونون الأحاديث بالنقل من كتب أخرى ، بل كان اعتمادهم على ما حفظوه عن مشايخ الحديث ، وعرفوا جيده من رديئه ، وصحيحه من ضعيفه.

وما كادت شمس هذا القرن تؤذن بمغيب حتى كانت الموسوعات الحديثية تزخر بالحديث وعلومه.

- ثم أشرقت شمس القرن الرابع :

فأخذ علماؤه يجمعون ما تفرق في كتب الأولين ،

أو يختصرونها بحذف الأسانيد ،

أو يقومون بشيء من الترتيب والتهذيب إلى غير ذلك.

وإذا تكلموا في شيء من الأسانيد فبلسان من سبقهم من أهل القرون الأولى.

غير أن جمهرة كبيرة منهم نسجوا على منوال السابقين ، وكان لهم في رواية الأحاديث باع طويل.

وعلى ذلك تتابعت جهود العلماء في القرن الرابع مكملة لجمهور من سبقوهم من القرون الأولى ؛ خدمة للسنة المشرفة.

- ومن أشهر علماء هذا القرن :

أبو جعفر أحمد بن محمد الطحاوي (المتوفى سنة ٣٢١هـ).

وابن حبان محمد بن حبان أبو حاتم البستي (المتوفى سنة ٣٥٤هـ).

والدارقطني على بن عمر (المتوفى سنة ٣٨٥هـ).

وأبو عبد الله الحاكم النيسابوري (المتوفي سنة ٤٠٥ هـ).

وغيرهم.

(ثانيًا)

التعريف بالإمام الدار قطني (٣٠٦ - ٣٨٥هـ)

وفيه:

١- اسمه ونسبه.

٢- عصره ومولده ونشأته.

٣- رحلاته وشيوخه.

٤- تلاميذه.

٥- قوة حفظه.

٦- مصنفاته.

٧- ثناء العلماء عليه.

٨- وفاته.

١- اسمه ونسبه

هو الإمام شيخ الإسلام وحافظ الزمان : أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد الدارقطني البغدادي.

- والدَارَقُطْنيّ - بفتح الدال المهملة وبعدها ألف وراء مفتوحة ثم قاف مضمومة وبعدها طاء مهملة ساكنة ثم نون - : نسبة إلى دار القطن ، وهي بلده التي ولد فيها ، وكانت منطقة كبيرة ببغداد وسوقًا لتجارة القطن ، تتصل بمجموعة الأسواق التي أنشأها الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور خارج أسوار مدينة بغداد.

- والبغدادي : نسبة إلى بغداد البلد الكبير التي تقع دار القطن قريبة منها وإقليمًا لها.

٢- عصره ومولده ونشأته

- عصره : في القرن الرابع الهجري ، وفي مدينة بغداد التي عانت في ذلك الوقت من الاضطرابات السياسية ، وسوء الحالة الاجتماعية ، وتصارع المذاهب بين شيعية وسنية : كان علم الحديث من بين العلوم التي نشطت حركتها خلال هذا القرن.

وكان لابد أن يقف الأئمة أمام هذا التيار الجارف الخطير، وأن يُشهروا راية الاحتجاج بالسنة ومنزلتها وأهميتها للقرآن.

ومن هؤلاء : الإمام الدارقطني.

- مولده : في هذا العصر الذي وصفناه ، وفي حي دار القطن: وُلد في الإمام الدارقطني سنة ست وثلاثمائة من الهجرة ، وقيل: سنة خمس وثلاثمائة.

- نشأته :

أحب الإمام الدارقطني العلم منذ صغره ، ويبدو أن والده عمر كان محبًّا للعلم راغبًا فيه ، فقد روى الحديث عن محمد بن أبي بكر ، وروى عنه ابنه الدارقطني في نفس الحديث.

وقد وصف الخطيب هذا الوالد بأنه كان ثقة.

فنشأ ابنه محبًّا لما أحب أبوه ، طالبًا له ، مرتحلًا في سبيله حتى وصل إلى مبتغاه ؛ من التبحر والنبوغه فيه.

٣- رحلاته وشيوخه

كتب الإمام الدارقطني الحديث مبكرًا ، وهو في حوالي التاسعة من عمره ، فسمع أولاً من شيوخ بلده كأبي القاسم بن منيع البغوي ، وابن صاعد ، وابن أبي داود ، وغيرهم .

وارتحل كذلك مبكرًا ليسمع الحديث خارج بلده ، فارتحل إلى :

أ- البصرة :

وكانت أول بلد ارتحل إليها حيث تقع قريبًا من موطنه وسمع شيخها محمد بن سليمان النعماني.

ب- الكوفة :

حيث سمع من شيخه محمد بن القاسم المحاربي.

ج- مصر :

ثم كانت رحلته إلى مصر ، وكانت هذه الرحلة سنة (٣٥٤هـ)، وكان الدارقطني قد تقدم به السن ، وامتلأ وعاؤه بالعلم ، فتتلمذ عليه تلاميذ كثيرون ؛ كعبد الغني بن سعيد ، وغيره ممن نهل من علمه وتأثر به.

ومع بلوغ الدار قطني هذه المنزلة ، إلا أنه لم يفته أن يسمع من شيوخ مصر ، فسمع من شيخها : الحسن بن رشيق ، وسمع من الشيخ أبي بكر النقاش محمد بن علي بن الحسن المصري.

د- كما رحل الدار قطني إلى أماكن أخرى كـ : الشام ، والحجاز، فحج بيت الله الحرام ، وسمع من شيوخ المدينة ، وغيرهم .

وقد سمع الدار قطني من شيوخ عدة غير من سبقوا ؛ منهم :

الحسين بن إسماعيل المحاملي ، ومحمد بن مخلد الدوري ، وأبو بكر بن زياد النيسابوري ، ويوسف بن يعقوب النيسابوري، وعلي بن عبد الله الواسطي ، وجعفر بن محمد الصيدلي ، وأحمد بن محمد الواسطي ، وإسماعيل بن العباس الوراق ، والحسين بن يحيى بن عياش.

وغيرهم كثير.

٤- تلاميذه

تتلمذ للدارقطني طلاب كثيرون ؛ منهم :

أبو بكر محمد بن عبد الملك بن بشران ، وهو أحد رواة كتاب "السنن" عن الإمام ، وأبو نعيم الأصبهاني ، وأبو بكر البرقاني، وأبو الحسن العتيقي ، وحمزة بن يوسف السهمي ، والفقيه أبو حامد الإسفراييني ، وأبو مسعود الدمشقي ، وأبو الحسين محمد بن علي بن المهدي بالله ، وأبو عبد الله الحاكم النيسابوري ، وعبد الغني بن سعيد المصري ، وأبو القاسم التنوخي ، وأبو طاهر بن عبد الرحمن الكاتب.

وغير هؤلاء كثيرون ممن ، صاروا بعد ذلك أئمة مشهود لهم بالعلم والفهم.

٥- قوة حفظه

من الأدلة على ذلك ما ذكره الخطيب البغدادي عن الأزهري أنه قال : بلغني أن الدارقطني حضر في حداثة سنه مجلس إسماعيل الصفار ، فجعل ينسخ جزءًا كان معه ، وإسماعيل يملي ، فقال له بعض الحاضرين : لا يصح

سماعك وأنت تنسخ، فقال الدارقطني : فهمي للإملاء خلاف فهمك ، ثم قال : تحفظ كم أملى الشيخ من حديث إلى الآن ؟ فقال : لا شيء ، فقال الدارقطني : أملى ثمانية عشر حديثًا ، فعُدَّت الأحاديث ، فوُجدت كما قال ، ثم قال أبو الحسن : الحديث الأول منها عن فلان ، ومتنه كذا ، والحديث الثاني عن فلان ومتنه كذا ، ولم يزل يذكر أسانيد الأحاديث ومتونها على ترتيبها في الإملاء حتى أتى على آخرها ، فتعجب الناس منه.

٦- مصنفاته

من مؤلفاته وآثاره العلمية :

١- كتاب السنن ، وهو موضوع هذه المحاضرة.

٢- كتاب الإلزامات : ألزم فيه الدارقطني البخاري ومسلمًا إخراج أحاديث أخرجوا لرواتها في كتابهما ، ومع ذلك لم يخرجاها.

٣- كتاب التتبع : ويشتمل على المنهج السابق ذكره في تتبع أحاديث استدركها على الشيخين كان لزامًا عليهما أن يخرجاها.

٤- كتاب الصفات : وهو كتاب يشتمل على ثمانية وستين حديثًا من الأحاديث الواردة في صفات الله.

٥- كتاب النزول : ويشتمل على ستة وتسعين حديثًا وأثرًا رويت في نزول الله ، مرتبًا لها بمن روي عنه الحديث.

٦- كتاب أحاديث "الموطأ" واتفاق الرواة عن مالك ، واختلافهم فيها زيادة ونقصاً : وهو كتاب مختصر ، جمع فيه الدارقطني مواضع اتفاق رواة الموطأ وانفرادهم ، وقد رتب أحاديث الموطأ على ترتيب شيوخ مالك.

٧- كتاب العلل : وهو من أعظم كتبه ، وهو مرتب على المسانيد ، حيث يذكر اسم الصحابي ، ثم يرد الأحاديث المروية عنه التي فيها علل ، ثم بيان وجه الصواب منها.

٨- كتاب الضعفاء والمتروكين : ذكر فيه (٦٣٢) راويًا من الضعفاء ، ومَنْ ترك الأئمة روايتهم.

٩- كتاب المؤتلف والمختلف في أسماء الرجال : ذكر فيه أسماء الرواة الذين اتفقت أسماؤهم خطًّا ، واختلفت نطقًا .

١٠- كتاب الغرائب والأفراد : تناول فيه الدارقطني الأحاديث التي وقع في طرقها تفرد راوٍ عن آخر برواية متن حديث أو لفظة زائدة .

وغير ذلك كثير من المؤلفات.

ما نسب إليه بطريق الخطأ :

١- كتاب المعرفة بمذاهب الفقهاء : فقد ذكر الخطيب في "تاريخ بغداد" أن الدارقطني له اطلاع واسع في أمور ، منها المعرفة بمذاهب الفقهاء ، فظن من قرأها أن هذا كتاب للدارقطني.

٢- كتاب الزهد : نسبه إليه بروكلمان ، والصحيح أنه هو الذي نسخه فقط ، وأنه كتاب الزهد للحارث بن أسد المحاسبي.

٣- كتاب غريب اللغة : ذكره صاحب "كشف الظنون" .

٧- ثناء العلماء عليه

عرف الأئمة والعلماء قدر الدارقطني ، وأثنوا عليه بما هو أهله.

فقال الخطيب البغدادي : " كان فريد عصره ، ونسيج وحده ، انتهى إليه علم الأثر والمعرفة بعلل الحديث وأسماء الرجال ٨- وفاته

بعد هذه الحياة الحافلة بالجد والكفاح في طلب العلم وتعليمه ، توفي الدارقطني يوم الأربعاء لثمان خلون من ذي القعدة سنة خمس وثمانين وثلاثمائة ، عن ثمانين عام تقريبًا ، ودُفن ببغداد.

ولشدة تعلق إخوانه به قال ابن ماكولا : "رأيت في المنام في ليلة من ليالي شهر رمضان كأني أسأل عن حال الدارقطني في الآخرة ، وما آل إليه أمره ، فقيل لي : (ذاك يدعى في الجنة الإمام) " .

وأحوال الرواة ، مع الصدق والأمانة ، والفقه والعدالة وقبول الشهادة ، وصحة الاعتقاد وسلامة المذهب ، والاضطلاع بعلوم سوى علم الحديث ، منها : القراءات ، والمعرفة بمذاهب الفقهاء، فإن كتاب "السنن" يدل على أنه ممن اعتني بالفقه ، وعنده المعرفة بمذاهب الفقهاء ؛ لأنه لا يقدر على جمع ما تضمن ذلك الكتاب إلا من تقدمت معرفته بالاختلاف في الأحكام ... ، ومنها ـ أيضًا ـ المعرفة بالأدب والشعر واللغة والنحو".

وجمع إلى جانب الإمارة في الحديث وعلومه علومًا أخرى كما سبق ، ومن ذلك علمه باللغة ، فقد ذكر الخطيب أنه لما قدم مصر كان بها شيخ علوي يقال له : مسلم بن عبيد الله ، وكان أحد الموصوفين بالفصاحة ، المطبوعين على العربية ، فسأل الناس أبا الحسن –أي : الدارقطني - أن يقرأ عليه كتابًا ، ورغبوا في سماعه بقراءته ، فأجابهم إلي ذلك ، واجتمع في المجلس من كان بمصر من أهل العلم والأدب والفضل ، فحرصوا على أن يحفظوا على أبي الحسن لحنةً ، أو يظفروا منه بسقطة ، فلم يقدروا على ذلك ، حتى جعل مسلم يعجب ويقول له : وعربية أيضًا ؟

وقال عبد الغني بن سعيد الحافظ : "أحسن الناس كلامًا على حديث رسول الله ﷺ ثلاثة : على بن المديني في وقته ، وموسى بن هارون في وقته ، وعلي بن عمر الدارقطني في وقته" .

وقال الحاكم : " ما رأى مثل نفسه ، وأشهد أنه لم يخلف على أديم الأرض مثله" .

٨- وفاته

بعد هذه الحياة الحافلة بالجد والكفاح في طلب العلم وتعليمه ، توفي الدارقطني يوم الأربعاء لثمان خلون من ذي القعدة سنة خمس وثمانين وثلاثمائة ، عن ثمانين عام تقريبًا ، ودُفن ببغداد.

ولشدة تعلق إخوانه به قال ابن ماكولا : "رأيت في المنام في ليلة من ليالي شهر رمضان كأني أسأل عن حال الدارقطني في الآخرة ، وما آل إليه أمره ، فقيل لي : (ذاك يدعى في الجنة الإمام) " .

(ثالثًا)

"سنن الدارقطني" ومنهج مؤلفه فيه

وفيه:

١- اسم الكتاب.

٢- موضوع "سنن الدارقطني".

٣- رواة "سنن الدارقطني".

٤- خصائص "سنن الدارقطني".

٥- منهج الدارقطني في "السنن".

٦- منزلة "سنن الدارقطني" بين كتب السنة.

٧- جهود العلماء في "سنن الدارقطني".

١- اسم الكتاب

تعددت إطلاقات العلماء على الكتاب كما يلي :

أ- "السنن" :

وسمي بذلك لأنه مرتب على كتب الفقه وأبوابه ، وما كان من كتب الحديث كذلك سمي : "سننًا".

ب - "المجتبى من سنن المصطفى - صلي الله عليه وسلم -": وهذه التسمية واضحة على مخطوطات الكتاب.

وعلى الرغم من ذلك فإننا لم نجد ممن شرح النص أو علق عليه كالشيخ شمس الحق العظيم آبادي : إشارة إليها ، وإنما سمى شرحه هذا : "التعليق المغني على سنن الدارقطني" .

٢- موضوع "سنن الدارقطني"

موضوع الكتاب : جمع أحاديث السنن والأحكام مرتبة على أبواب الفقه مع بيان حالها من الصحة والضعف.

أي أن منهج الدارقطني لم يكن جمع الأحاديث الصحيحة فقط ، ولكن إظهار ما في الأحاديث من علل ؛ لذلك فقد جمع إلى جانب الأحاديث الصحيحة : الأحاديث الحسنة والضعيفة ، مع بيان ذلك.

٣- رواة "سنن الدارقطني"

ذكر الشيخ شمس الحق العظيم آبادي في مقدمة كتابه: "التعليق المغني على سنن الدارقطني" أسماء خمسة رواة من تلامذة الدارقطني رووا عنه كتاب "السنن" ، وهم :

١- أبو بكر محمد بن عبد الملك بن بشران.

٢- أبو الطاهر محمد بن أحمد بن عبد الرحيم الأصبهاني.

٣- أبو بكر أحمد بن محمد بن أحمد ، المعروف بالبرقاني.

٤- القاضي أبو الطيب طاهر بن عبد الله بن طاهر الطبري.

٥- أبو الحسن محمد بن علي بن عبد الله ، المهتدي بالله.

وذكر العلامة المحدث عبد العزيز ولي الدين الدهلوي في كتابه: "بستان المحدثين" أن هذه النسخ الثلاثة - أي : نسخة ابن بشران ، ونسخة أبي طاهر ، ونسخة البرقاني - :

وقع فيها اختلاف وتفاوت في التقديم والتأخير في بعض الأحاديث ، وفي أنساب الرواة ، وفي بعض الألفاظ ،

وأما الأحاديث ففي كل من النسخ الثلاثة موجودة بالاستيفاء ، ما عدا نسخة أبي طاهر ، فإن "كتاب السبق" ليس فيها بأسره.

٤- خصائص "سنن الدارقطني"

١- يشتمل هذا الكتاب على (٤٧٦٩) حديث ، مرتبة على الكتب الفقهية.

٢- معظم أحاديث الكتاب تدور مع المسائل الفقهية ؛ مما يعتبر دليلاً لكل صاحب مذهب من المذاهب الفقهية المعتمدة.

٣- يجمع في الحديث الواحد أكثر من طريق ، ثم يبين ما فيه من إرسال أو ضعف باضطراب أو غيره.

٤- يجمع فيه بين الحديث المرفوع إلى النبي ـ صلي الله عليه وسلم ـ والموقوف على الصحابة.

٥- يذكر فيه الأحاديث ، ثم يعقبها بالحكم على بعض رواتها.

٦- يذكر فيه الحكم على رواة الأحاديث تعديلًا وتجريحًا ، إما قولاً له ، أو قولاً لغيره.

فهو بذلك يكون قد جمع في كتابه بين علمي الحديث رواية ودراية.

٧- يذكر في الحديث رواياته المختلفة ، فإذا اختلفت إحدى الروايات أو الرواة في لفظ معين ذكره مبينًا سنده.

٨- يذكر عقب بعض الأحاديث ما يبين غامضًا ، أو يفسر مبهمًا.

٩- إذا ذكر حديثين وهما معلولان فلا يكتفي بذكر علتهما فقط، بل يقارن بين درجة علتيهما.

٥- منهج الدارقطني في "السنن"

١- رتبه على أبواب الفقه ؛ حيث بدأه بكتاب الطهارة ثم الصلاة ، وهكذا على منوال كتب السنن.

٢- أورد حديث كل باب بأسانيده إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وغالبًا يورد الحديث بأكثر من طريق.

٣- يعقب على كل حديث يورده - غالبًا - ببيان ما فيه من العلل سندًا ومتنًا ؛ ولذلك امتلأ كتابه بآرائه في جرح الرجال وتعديلهم.

٤- اشتمل كتابه على الصحيح والحسن والضعيف ، وقَلَّ أن يورد فيه الموضوع.

٥- كثيرًا ما يورد الأحاديث أو الروايات التي ظاهرها التعارض، ثم يرجح بينهما.

٦- منزلة "سنن الدارقطني" بين كتب السنة

يعتبر كتاب الدارقطني مكملًا لمرحلة قد بدأت خلال القرن الرابع ، وهي مرحلة الدراسة النقدية العميقة التي تكشف عن بيان درجة الأحاديث ، وتبعد ما عساه أن يكون تسرب إلى طرقها وأسانيدها ومتونها من أوجه تحط من قيمتها ، وتذهب أثرها ؛ كالضعف والاضطراب والاختلاف.

وقد كانت الحاجة ماسة إلى هذا أكثر من الحاجة إلى تصنيف كتب يحاكي بها أصحابها مناهج المتقدمين في الرواية فقط.

وقد ظهرت صورة هذا المجهود في كتاب "السنن" للإمام الدارقطني .

٧- جهود العلماء في "سنن الدارقطني"

أ- شروحه:

- شرحه الشيخ شمس الحق العظيم آبادي ، وسماه : "التعليق المغني على سنن الدارقطني" .

ب- التأليف في زوائده على الكتب الستة:

- قام الشيخ زين الدين قاسم الحنفي بتجريد زوائده على الكتب الستة ، وجمعها في مجلد واحد.

ج- التأليف في جمع أطرافه:

- صنف ابن حجر كتاب : "إتحاف المهرة بالفوائد المبتكرة من أطراف العشرة".

جمع فيه أطراف كتب عشرة من كتب الحديث ، من بينها : "سنن الدارقطني" .

د- التأليف في رجاله :

١- صنف زين الدين العراقي جزءًا في رجال "سنن الدارقطني".

٢- وصنف عمر بن علي المعروف بابن الملقِّن كتاب : "إكمال تهذيب الكمال" ، وهو ذيل على "تهذيب الكمال" للمزي ، تناول فيه ابن الملقن رجال كتب ستة ، من بينها رجال "سنن الدارقطني" .

‘‘‘

بتوفيق للجميع

Khaled